الخطبة السابعة

العلم بالأصول لتفسير النصوص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه، أما بعد:

إذا لم نتعلم القواعد الأصولية وقعنا في الإشكالات، وأوقعنا الناس الذين يستمعون إلينا، وقد قال الإمام أحمد: إذا ضل العَالِمْ ضل العَالَمُ، وإننا نسمع كثيراً من خطباء الجمعة يأتون إلى حديث النبي ﷺ ويفسرونه حسب مفهومهم ولا يرجعون إلى العلماء المختصين في شرح الحديث، فتأتي تفسيراتهم مخالفة ومحيرة وتعطي مفاهيم خاطئة.

ولكن الذي أؤكد عليه هو: أنه يجب على جميع من يتصدرون للخطاب الديني وشرح النصوص الشرعية؛ أن يعودوا إلى النبع وإلى العلماء العارفين العالمين العاملين؛ حتى ينقلوا للناس مراد الله تعالى ومراد رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقضية فهم النصوص قضية قديمة، ومرجعها يجب أن يكون إلى رسول الله ﷺ، إن وجد في النص المُنَاقَش فيه حديثاً صحيحاً، أو تفسيرٍ من بعض الصحابة إن وُجِد بسندٍ صحيح، أو فهمِ صحابيٍّ بسندٍ صحيح لهذا النص، بشرط أن لا يكون لفهم هذا الصحابي فهم مخالف لصحابي آخر، وخاصة إذا كان هذا الصحابي الآخر مشهود له بالعلم، كالعَبَادِلة الأربعة وهم عبد الله بن عمر، عبد الله بن مسعود، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن عباس رضي الله عنهم أجمعين.

فإن لم نجد، فمما قاله أحد التابعين عن تفسير هذا النص، خاصة الكبار منهم؛ كالحسن البصري وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم، فإن لم نجد فما قاله أحد العلماء المشهود لهم بالعلم والاستنباط والاجتهاد، ومن فضل الله تعالى علينا هم كُثُر جداً.

وقد يكون هناك أكثر من رأي في هذا النص، وهذا مجال الاجتهاد، وقد يكون كلا الرأيين صائب، أو مما يحتمله فهم النص، ولكن هناك قواعد لأصول الدين، فإذا خالف رأيٌ أصلاً من أصول الدين فهو مرفوض، لأن أصول الدين وقواعده اتفقت عليها الأمة، ونصوص الكتاب والسنة تؤيد هذه الأصول لذلك لا أحد له الحق في مخالفتها.

وروى الإمام أحمد رضي الله عنه عن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 6/ 82]، شق ذلك على الناس، وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال ﷺ: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 31/ 13]؟ إنما هو الشرك» رواه البخاري، أي: أن الظلم في الآية معناه الشرك.

فهؤلاء الصحابة الكرام فهموا الظلم في الآية على أنه الذنوب والمعاصي فشق عليهم ذلك لأنه لا يوجد أحد من البشر لا يرتكب ذنباً أو معصية إلا الأنبياء، لأن الله سبحانه وتعالى عصمهم، لذلك فهموا أنه من ارتكب معصية أو ذنباً ليس له أمن يوم القيامة وليس من المهتدين، فمعناها الشقاء والعذاب -والعياذ بالله- لذلك شق عليهم الأمر وفزعوا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 35/ 32]، ثم قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: 35/ 33].

وقال المفسرون: إن المقصود بهذه الفئات الثلاث: هي أمة محمد ﷺ.

(ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ): هو المفرط في فعل الواجبات المرتكب لبعض المحرمات.

(وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) أي: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، المفرط في المستحبات والقائم بالمكروهات، أو أنه مقترف لبعض الذنوب غير مصرّ عليها ومستغفر منها.

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ): وهم أعلى درجة، محافظون على واجباتهم، تاركون للمحرمات وفاعلون للخيرات، لذلك فَسَّر الصحابة الكرام آية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: 6/ 82]، فسروا الظلم في هذا الآية كما فهموها من آية فاطر: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أي: مرتكب المعاصي والمحرمات، لكن القول الفصل لرسول الله ﷺ، وأصل من أصول الدين أن الذنب إذا استغفر العبد منه وتاب فالله سبحانه يغفر الذنب ويبدله حسنة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: 25/ 70].

فهذا أصل من أصول الدين، وفهمهم خالف هذا الأصل، ففهمهم رسول الله ﷺ أن الذي ليس له الأمن وليس بمهتدي إنما هو المشرك، لذلك وصلنا إلى النقطة التي أدور عليها، وهي فهم قواعد أصول الدين، وكل إشكال تراه إنما هو في عدم فهم أصل من هذه الأصول، لذلك يجب علينا أن نرجع إلى أهل العلم في فهم النصوص؛ لأنهم أدركوا هذه الأصول وفهموها.

ونحن قد نقع في الخطأ إذا فسرنا بموجب فهمنا فقط، وإليك الأمثلة: كثير من الخطباء الكرام يحذرون الناس من المحرمات والذنوب والمعاصي ومخالفة أوامر الشريعة، وهذا أمر طيب وجيد، ولكن يجب استخدام النصوص الصحيحة الدالة على ذلك، ولكن بعضاً منهم يستخدم الحديث التالي:

قال ﷺ: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثورًا، أما إنهم إخوانكم من أهل جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها» عن ثوبان رضي الله عنه.

صحيح ابن ماجه رقم (4245)، يقول هؤلاء الخطباء: إن هؤلاء الذين في الحديث قوم لهم أعمال صالحة كثيرة كجبال تهامة، وهم إخواننا ويقومون الليل كما نقوم ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها فإياكم والمعاصي والمحرمات.

أقول وبالله ومنه العون -وأعوذ بالله من القول على الله وعلى رسوله بغير علم- أقول: يا أخي هذا الفهم مخالف لأصول الدين! مهلاً عليّ، ودعني أوضح: الأصل في الدين أن الحسنات يذهبن السيئات، هذا أصل من أصول الدين، والأصل الثاني أن السيئات لا يذهبن الحسنات، وإليك الدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: 11/ 114].

وهذا المعنى كثير في القرآن، والآيات الدالة عليه كثيرة، وفي هذه الآية كفاية، ثم من الحديث عن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» رواه الترمذي.

وعن معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه إلى قوم فقال: يا رسول الله أوصني. فقال ﷺ: «أفشِ السلام، وابذل الطعام، واستحيِ من الله استحياء رجل ذي هيئة من أهلك، وإذا أسأت فأحسن، وليَحسُن خُلُقك ما استطعت» الطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله ﷺ علمني عملاً يقربني من الجنة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «إذا عملت سيئة فاعمل حسنة فإنها عشر أمثالها»، قال: قلت: يا رسول الله: أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال ﷺ: «هي أحسن الحسنات».

مما تبين تتوضح القاعدة: إن الحسنات يذهبن السيئات وليس العكس، وقد يقول قائل: ما رأيك بقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 2/ 81].

أجمع المفسرون أن الذي يُخلد في النار هو الكافر أو المشرك بالله تعالى الشرك الأكبر، أما الموحد الذي يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله مؤمناً بها موقناً بها خالصاً لله من قلبه، ولا يأتي ولا يؤمن بما يخرج من الملة فهذا هو الموحد الذي لا يخلد في النار، وإنما يعذب بذنوبه إذا شاء الله تعالى، وبما شاء الله تعالى ثم يخرج من النار ولو بعد حين، إذن معنى: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ خطيئة الشرك والكفر، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: 5/ 5].

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ) أي: يكفر بأي بند من بنود الإيمان الستة، أو أنه يكفر بما ينعقد به إيمانه وقد جمع العلماء أموراً يخرج بها المرء من الملة والعياذ بالله :

1 - دعاء غير الله تعالى، قال ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله نِداً دخل النار» البخاري، (النِد): المثيل أو الشريك في أي صفة من صفات الله عز وجل.

2 - النفور واشمئزاز القلب من توحيد الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الزمر: 39/ 45].

3 - الذبح لغير الله تعالى، قال ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله» مسلم.

4 - النذر لمخلوق على سبيل التقرب والعبادة.

5 - الطواف حول القبور بنية العبادة.

6 - الاعتماد والتوكل على غير الله، قال تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: 10/ 84].

7 - الركوع والسجود بنية العبادة لغير الله تعالى.

8 - إنكار ركن من أركان الإسلام أو أركان الإيمان.

9 - كراهية الإسلام وكراهية شرائع الإسلام، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: 47/ 9].

10 - الاستهزاء بشيء من القرآن، أو بحديث رسول الله ﷺ، أو بحكم مجمع عليه

من أحكام الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: 9/ 65 – 66].

11 – إنكار شيء من القرآن أو الأحاديث الصحيحة، مما يوجب الرِدّة عن الدين، إذا تعمد ذلك عن علم بلا شبهة.

12 – شتم الرب أو الدين أو سب الرسول ﷺ.

13 – إنكار شيء من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته أو أفعاله الثابتة في الكتاب والسنة من غير جهل ولا تأويل.

14 – عدم الإيمان بجميع الرسل أو انتقاص أحدهم، قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 2/ 285].

15 – الحكم والرضا بغير ما أنزله الله تعالى والاعتقاد بأن شريعة الله غير صالحة، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 5/ 44].

16 – أو التحاكم والرضا بغير حكم الإسلام، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 4/ 65].

17 – تحريم ما أحل الله تعالى أو تحليل ما حرم الله تعالى عن قصد وعن علم بحكم الله تعالى وحكم رسوله عليه الصلاة والسلام، أي: أنه يرفض ما شرعه الله تعالى ورسوله، كما نرى من بعضهم أنهم يقولون: إن الحجاب غير مشروع، أو: إن الربا حلال، ويعطون تفسيرات وتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان ولا اتفق علماء الأمة عليها.

18 – عدم تكفير من كفره الله ورسوله، لا يكفرون من صرح الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بكفره، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: 5/ 73]، قال ﷺ: «اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك

شيئًا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم» مسند الإمام أحمد، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 2/ 256]، فتكفير الكافر أصل من الأصول التي يجب تحقيقها.

أعود إلى الحديث الأول وهو: «ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها» أي: استباحوا الحرام وفعلوا الحرام فِعْلَ المُسْتَحِلِّ له كما في الفقرة (17) التي مرت، أي: أنهم حَلَّلوا الحرام، أي: أنهم رفضوا شرع الله تعالى، أي: أنهم اختاروا تشريعًا لأنفسهم مخالفًا وضد تشريع الله عز وجل، وهم على علم بتشريع الله سبحانه وتعالى، ولكنهم تعمدوا مخالفته، فهم كفروا بذلك، ولزيادة الإيضاح أنهم لم يكفروا بالوقوع بالحرام، فهذا معصية وذنب، وكلنا نرتكب معاصي، وكلنا إذا فعلنا الحرام نفعله سراً وخفية ولا نجاهر به، ولكنهم كفروا بمخالفة تشريع الله وعدم تحريم ما حرمه الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، كفروا بأنهم ردّوا ورفضوا شرع الله تعالى فجعلوا اعتقاداً الحرام حلالاً، فكفروا بذلك.

أما إذا فعل الحرام وهو يعلم ويُقرّ بأنه حرام وأنه أتى بفاحشة وهو يعلم أنه مستحق لعذاب الله ويخاف ويستغفر ويندم ويتوب، فهذا لا ينطبق عليه الحديث، أنا لا أدعو إلى فعل المحرمات -والعياذ بالله- ولكن أدعو إلى ترجمة النصوص ترجمة صحيحة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 4/ 48]، يعمل أعمالاً ظاهرها الخير والصلاح لكن اعتقاده بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام فيه شائبة وفيه شك وريبة لكن لا يُحدث به، أو أنه يعتقد اعتقاداً يخرجه من الملّة، أو أنه يرتد في أواخر حياته، المهم القضية ليست قضية ذنوب وسيئات، إنما القضية قضية معتقد وإيمان، مثال ذلك:

حدثني رجل يُقال عنه: إنه عالم ويحفظ من القرآن الكريم الشيء الكثير، فقال لي: إن الله تعالى لا يعلم ما سوف نفعله غداً، وقال: إن الله سبحانه لا يعلم الحوادث إلا بعد وقوعها، وساق لي آيات من القرآن الكريم مثالها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن

﴿تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: 3/ 142]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: 47/ 31]، وقال لي غيرها من القرآن الكريم، فاعتبر هذه الآيات بأنها دليل على أن الله –والعياذ بالله– لا يعلم الأمور والحوادث إلا بعد وقوعها!

قلت له:

1 – هذا كفر بأسماء الله وصفاته، لأن الله تعالى عليم خبير، وعلمه سبحانه أحاط بالماضي والحاضر والمستقبل، وعلمه أحاط بكل شيء، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 57/ 3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: 3/ 5].

2 – لم يفسر أحد من العلماء المختصين ولا الصحابة ولا التابعين هذه الآيات بأن الله –والعياذ بالله– لا يعلم، أو أنه سبحانه يجهل من هو المجاهد ومن هو الصابر حتى يبرهن الرجل عن نفسه.

3 – وفسر العلماء هذه الآيات: «حَتَّى نَعْلَمَ» أي: حتى يطابق فعل العبد ما علمه الله تعالى عنه في الأزل، وكما سجله في كتابه أي اللوح المحفوظ.

4 – لأن الله تعالى يحاسبنا بعملنا ولا يحاسبنا بعلمه حتى لا يكون لنا حجة، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: 20/ 134]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: 40/ 17]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: 82/ 10 – 12].

انظر معي يرحمك الله إلى قوله: (بِمَا كَسَبَتْ) وقوله: (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)، نقطتان أساسيتان: 1 – لا يحاسبك ولا يجازيك إلا بما كسبت وفعلت وقدمت يداك، قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: 3/ 25]، 2 – يعلم ما تفعلون قبل أن تفعلوه، ويعلم القصد

والنية من وراء ما تفعلونه، وعلمه سبحانه وتعالى مكتوب ومحفوظ قبل أن يخلقك، وقبل أن يخلق الدنيا وما فيها، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال تعالى: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني» صحيح أبي داود (4700)، وفي رواية الترمذي الصحيحة (3319) قوله عليه الصلاة والسلام: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد».

5 - جعل الله علينا شهوداً فيما نفعله، فأعضاؤنا تشهد علينا بما فعلناه، والأرض والناس والملائكة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: 41/ 21]، فهذا مثال الحديث، إن أعماله تبدو خيراً وصلاحاً، لكن مُعْتَقداً يصف الله تعالى بالجهل وبعدم العلم -والعياذ بالله- وهذا كفر بواح!

وهناك حديث آخر يخطئ به الكثير من خطباء الجمعة وهو: قال ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» حم - خ - م - د - ت - هـ عن ابن مسعود.

وهذا الرجل في الحديث إنما يعمل أعمالاً صالحة ولكن عنده شرك ولوث في عقيدته فيبوح بهذا الشرك أو يعمل به ويموت عليه قبل أن يتوب وينوب إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: 3/ 90-19]، والله سبحانه لا يضيع عمل محسن أبداً إذا كان اعتقاده سليماً وعمله خالصاً لله تعالى سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 4/ 40].

وقد ورد معنا في السنة أن الرجل يقاتل مع رسول الله ﷺ قتالاً شديداً جريئاً، فقال

رسول الله ﷺ إنه من أهل النار، فلما تتبعوه وجرحت ساعده وضع نصل السيف في صدره ومال عليه فقتل نفسه، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» متفق عليه من حديث سهل بن سعد.

هذا الحديث مهم جداً ويوضح أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، يعني: أن الناس يَرَوْنَ فيه صلاحـًا، أما قلبه وإيمانه ومعتقده فهذا غير واضح للناس، لذلك الله تعالى أعلم بالقلوب والنيات، والله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً ولا يظلم مثقال ذرة سبحانه وتعالى، والذي يخطئ به بعض إخواننا هو قولهم: إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة ثم يسبق عليه الكتاب، أي: يفسرونها أنه يفعل المعاصي والذنوب التي علم الله بها في الأزل، وسجلها في الكتاب فيموت على هذه المعاصي فيدخل النار، والقضية في الحديث -والله أعلم- ليست قضية معاصي وسيئات، وإنما هي أكبر من ذلك، قضية عقيدة وتوحيد وإيمان ونية صادقة خالصة لله تعالى.

لذلك علمنا رسول الله ﷺ أن ندعو فنقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ن - ك - ت.

وعن أبي اليسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم والغرق والحرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغـًا» ن - ك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من عذاب النار، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال» البخاري والنسائي.